صدر عن (المدى)

"حفلة التيس".. فضح البلاغة الرثة للديكتاتورية

سعد محمد رحيم

الديكتاتور هو الشخصية الأسطورية الوحيدة التي أنتجتها أميركا اللاتينية، على حد تعبير غابريل غارسيا ماركيز صاحب رواية (خريف البطريرك)، و(خريف البطريرك) هي الرواية التي تعد نصاً ذا صبغة تراجيكوميدية، عملاً أدبياً له محموله التاريخي الثقيل وقد صيغ بنبرة متهكمة لافحة، وغاضبة أيضاً، على الرغم من أن ماركيز قد حافظ بفذاذة على لغة سردية أرادها محايدة، ملتوية أحياناً، لكنها كاشفة في نهاية المطاف.. يمكن قول الشيء نفسه، إلى حد ما، عن رواية (السيد الرئيس) لأستورياس. وإلى حد بعيد، عن رواية (حفلة التيس)❖ لماريو بارغاس يوسا. والرواية الأخيرة محاولة لفضح البلاغة الرثة والبلهاء والمدمرة للديكتاتوريات، طالما كانت تشتغل بالأساليب والآليات والمسوغات ذاتها، في كل مكان وزمان، وتستخدم اللغة العرجاء والمسطحة والخادعة عينها التي ترمي إلى تزييف الأرشيف دائماً وتزويق تاريخ الدم والموت والخراب بخطاب شعاراتي يغالط المنطق الإيديولوجية بمعناها الدوغمائي والضيق.. إنه الفن الروائي الذي لا يكتفي باستثمار التاريخ بأحداثها وملابساتها فحسب ولا يعيد كتابته فحسب، وإنما يسعى لإضاءة الجزء المغمور منه والمنسي والمهمش، وحتى المسكوت عنه، وعبر رؤية فلسفية عميقة تفكك بنية السلطة الديكتاتورية وخطابها.. مستعيناً بأساليب من فنون كتابية أخرى مجاورة؛ السيرة، التاريخ، المقالة، وفي ضمن نسق سردي متشعب يتعاطى مع الزمن الروائي بتناغم واتساق يقترب من بناء القطعة الموسيقية. لكنها القطعة الموسيقية الحادة والمعجونة بشيء من الانفعال والغضب. فيوسا استطاع خلق نص جميل وهو يصور قدراً هائلاً من القبح الذي تصنعه الديكتاتورية، غالباً، بدناءة متقنة. طالما أنها عاجزة عن صناعة الجميل.

ويجانب الحقيقة، من غير تردد أو استحياء. ليست في هذه الرواية، كما كان شأن يوسا في رواياته الأخرى، تلك اللغة الشعرية المتأنقة، بل ثمة تدفق مبلبل وصادم للسلوك الديكتاتوري التقليدي والمبتكر في نموذجه الأميركي اللاتيني الصارخ. ولا بد أن يوسا، وهو الرجل الضليع في شؤون السياسة اللاتينية والعالمية وتاريخ قارته، قد كتب روايته عارفاً تماماً عما يكتب. فحفلة التيس هي الرواية التي تأخذ التاريخ على عاتقها من وجهة نظر الفن والإيديولوجية في الوقت نفسه، وقطعاً ليست تصل أورانيا كابرال إلى مدينة سانتو دومنغو دي غوثمان عاصمة جمهورية الدومينيكان بعد غياب خمس وثلاثين سنة لتصفي حسابها مع ماضيها وذكرياتها، أو بالأحرى مع أبيها المقعد أوغسطين كابرال الملقب بالمخيخ الذي كان أحد مساعدي تروخييو المقربين طوال ثلاثين سنة من حكمه الاستبدادي لتلك البلاد ذات التاريخ الوعر مثلها مثل معظم بلدان القارة. وإذا ما عرفنا أن تروخييو قد أغتيل في الثلاثين من آيار ١٩٦١ (سنة مغادرة أورانيا إلى الولايات المتحدة) فإنها تكون قد بدأت رحلتها السردية في منتصف تسعينيات القرن المنصرم. ولأن الرواية مكتوبة بضمير الغائب فإن الروائي يصبح حراً في سرد الأحداث من وجهات نظر عديدة، وبذا فإن الحدث الواحد يغتني أحياناً ويتلون كلما مضينا أكثر في القراءة. وتبقى عين وذاكرة ووعي أورانيا في مركز الحدث الروائي وكأنها هي الراوية الوحيدة على الرغم من أنها ليست هكذا في واقع الأمر.

صحيح أن الرواية عمل خيالي، ويجب أن تُقرأ كذلك، لكننا مع رواية كحفلة التيس لا نستطيع التغاضي عن التاريخ. والتاريخ هنا هو تاريخ الرعب الذي صنعه تروخييو في الدومينيكان.. يقول الملازم الشاب آماديو غارثيا غيريرو عن نظرة الديكتاتور؛ "لم أعرف الخوف إلى أن حطت علي تلك النظرة... هذا صحيح، أحسست كما لو أن هناك حكة في وعيي" ص,٤٠ هنا تكون البلاد والأمة والحاضر والمستقبل والمصير والخير والشر والحياة والموت رهين مشيئة الرجل الحديدي ومزاجه ورغباته ومصلحته الشخصية والأنانية. وهو الذي يتقمص دور الإله القادر على كل شيء؛ "فتروخييو قادر على تحويل الماء إلى نبيذ وعلى تكثير الخبز، إذا ما خطر ذلك لخصيتيه" ص,٢٢ هكذا يقول هو.. هو الجنرالسيمو، الزعيم المنعم، باني الدومينيكان الجديدة، كما يطلقون عليه في وسائل الإعلام، البذيء في سلوكه وفي كلامه مثل الديكتاتوريين جميعهم كما يعلمنا التاريخ. ولا حاجة للتذكير بقسوته، فليس هناك من ديكتاتور رؤوف بالناس، رحيم.. فهو لا يقتل بسلب الحياة فقط، وإنما يقتل في الحياة أيضاً.. هذا ما فعله مع أبي أورانيا (أوغسطين كابرال/ رئيس مجلس الشيوخ)، وهذا ما فعله مع ملايين الدومينيكانيين؛ ولذا سيسقط برصاص بعض ضحاياه أخيراً "برصاص أنطونيو دي لاماثا الذي قتله تروخييو أيضاً، قتله بطريقة أبطأ وأخبث من تلك التي صفى بها الآخرين بالرصاص، أو بالضرب، أو بالإلقاء بهم إلى أسماك القرش، لقد قتله على مراحل، منتزعاً منه الوقار، الشرف، احترامه لنفسه، مرح الحياة، الآمال، الرغبات، وخلفه جلداً وعظماً معذباً بهذا الضمير الموجوع الذي يدمره شيئاً فشيئاً منذ سنوات"ص ,١٠٣ والديكتاتور يتوهم، أو هكذا يوهمه منافقوه أنه السبب في كل ما هو خير، في سقوط المطر وطلوع الشمس وتبرعم الأشجار، وأنه صاحب الفضل في ارتداء رعاياه ملابسهم وأحذيتهم، وتناولهم طعامهم، واستنشاقهم الهواء. ومع هذا فإن تروخييو يحتقر شعبه في صميم دخيلته ويصفهم بناكري الجميل وينعت البلاد ببلاد الجاحدين والجبناء والخونة "فلكي يُخرجها من التخلف، من الفوضى، من الجهل والبربرية، اضطر إلى أن يلطخ نفسه بالدم مرات كثيرة. هل سيشكره في المستقبل هؤلاء الأوغاد" ص,٨٣

وها هو بالاغير نائبه الثعلب يرفع شعار الله وتروخييو.. يقول لسيده حين يسأله عن مقصده في ادعائه أن الرب قد سلّمه المهمة: "ما كان بمقدور تروخييو أن ينجز هذه المهمة التي تفوق طاقة البشر دون دعم متعال، لقد كنت سيادتك، بالنسبة لهذه البلاد، أداة من الكائن الأعلى" ص,٢٤٩

يستغرق زمن السرد أسبوعاً واحداً، أي فترة الإجازة التي تقضيها أورانيا في سانتو دومنغو تواجه فيها أبيها المقعد، المشلول، وتحكي لعمتها وبنات عمتها ما كان يثقل ضميرها طوال خمس وثلاثين سنة.. تحكي عن تلك الفاصلة المرعبة من حياتها يوم نبذ الديكتاتور أبيها رئيس مجلس الشيوخ، فأقنع مانويل ألفونسو، المسؤول عن أناقة الديكتاتور، الأب (كابرال/ مخيخ) أن يقدم ابنته الجميلة ذات الأربعة عشر ربيعاً (أورانيا) هدية لليلة واحدة لتروخييو الذي يبلغ السبعين، ليرضى عن مخيخ هذا ويقربه ثانية.. يقول ألفونسو: "أتعرف أمراً يا مخيخ؟ لو أنها ابنتي لما ترددت لحظة واحدة. ليس من أجل نيل ثقته، وليس لأثبت له بأنني مستعد لأية تضحية من أجله. وإنما ببساطة لأنه ليس هناك ما يرضيني ويسعدني أكثر من جعل الزعيم يمتع ابنتي ويستمتع بها" ص,٢٩٣ وهذا المقطع يفصح عن مدى الانحطاط الذي يمكن أن تنحدر إليه المجموعة المحيطة بالديكتاتور. وسينتاب الديكتاتور العجز في سعيه لهتك عذرية الطفلة/ الشابة، وهذه الواقعة ستجرحه في الأعماق، وسيبقى يتذكر هذا العار والضرر الذي أصابه معها طوال الأسبوعين اللاحقين الباقيين من عمره حيث سيكمن له جماعة من المتآمرين على الطريق وهو في سيارته، مع سائقه فقط، ومن غير حماية، ومقصده بيت كاويا حيث تنتظره عذراء أخرى يأمل أن يؤكد معها رجولته المجللة بالمهانة. هذه المؤامرة التي ستنجح نصف نجاح بسبب تردد الجنرال خوسيه رينيه رومان في السيطرة على مقاليد الحكم باعتباره رئيس أركان القوات المسلحة، فيبدأ ابن الجنرالسيمو (رامفيس) وأقاربه بالتنكيل بالمتآمرين وتعذيبهم وقتلهم بصور بشعة، بمن فيهم الجنرال رومان.

لن يترك الديكتاتور أورانيا تذهب لحالها، سيستخدم أصابعه في فتق عذريتها، ولكنه لسبب مجهول، ولحسن الحظ، يتردد في قتلها فتنجح في مغادرة البلاد بعد أيام قليلة، وقد قررت أن تقاطع أبيها وإلى الأبد.. تقول لمانوليتا ابنة عمتها "أتتذكرين بأي عصبية كنا نتكلم عن فقدان العذرية يا مانوليتا؟ لم أكن أتصور يوماً أنني سأفقدها في بيت كاويا، مع الجنرالسيمو. وفكرت: إذا ما ألقيت بنفسي من النافذة، فإنني سأسبب عذاب ضمير رهيب لأبي" ص,٤٢٨ ويبدو أن الأب نال جزاءه كفاية من عذاب الضمير طوال هذه السنين، فأورانيا رفضت أن تكلمه عبر الهاتف، وأن ترد على رسائله، لكنها حين حققت النجاح في عملها في أميركا، راحت ترسل له مساعدات مادية تعينه في مرضه وشيخوخته. ولما سألتها عمتها عن سبب مساعدتها لأبيها على الرغم من غيظها منه وبغضها له، أجابت أنها تريد أن تبقيه ميتاً في الحياة. وهكذا تبوح أورانيا بما كانت تثقل دخيلتها؛ وعيها وضميرها طوال عقود وهي بعيدة عن مرتع طفولتها، وأمكنة ذكرياتها. تطلق الكائنات التي ظلت حبيسة فيها هذه المدة كلها، وتتحرر منها، إنها تصفية حساب قاسية ومؤلمة مع نفسها ومع عالمها، ومع ماضيها كله.

وإذ تقع الأحداث على خلفية الدراما السياسية المخيفة للدومينيكان في عهد ديكتاتورية مستبدة وفاشية تتكشف لنا مفاصل وآليات خطاب تلك الديكتاتورية المهلهل.. خطاب إرغام ذو بعد واحد، ينطوي على وعيد صريح ومبطن.. يسجن البشر في حقل الكلام الفاشي ويتركهم، هم المخاطبون (بفتح الطاء) في حالة مستديمة من الشعور بالذنب والتهديد والخطر، وربما لوم الذات، فأولئك المخاطبون يتعرضون لغسيل مخ منظّم من دون مقاومة ذاتية فعالة ليجدوا أنفسهم في النهاية وقد أصاب الخراب كامل جهازهم الذهني، تائهين داخل دوامة شبحية، يشعرون فيها وكأن صلتهم بالعالم والحياة واهنة، ومحطمون في ذواتهم وعقولهم.. إن الفاشية بعد أن تغتصب اللغة تكون قد اغتصبت الروح.. إن دماراً فادحاً سيلحق جراء ذلك بالذوق والأخلاق والإحساس بالكيان الذاتي.. وتكون ضحايا الخطاب ذاك ليس المواطنون الاعتياديون فحسب، وإنما حتى الذين ينتمون للصف الأول للنظام.. يوضع الجميع في نطاق تراتبية صارمة، وها هو تروخيو نفسه يحشر من يسميهم بالمثقفين والمتأدبين في الخانة الأخيرة وهو يصنف بشر بلاده التي يدعي ملكيتها المطلقة له.. يقول تروخيو؛ "في السلم الاجتماعي، وحسب ترتيب الجدارة، يحتل العسكريون المقام الأول، فهم يؤدون الواجب، وقلما يتآمرون، ولا يضيعون الوقت. وبعدهم يأتي الفلاحون، في منشآت تكرير السكر وفي أكواخ القرى، ففي مصانع السكر تجد ناس هذه البلاد الأصحاء، الشغيلين، والشرفاء. وبعد ذلك الموظفون، فالمقاولون، فالتجار. أما المتأدبون والمثقفون فهم الأخيرون، بل إنهم وراء رجال الدين" ص, ٢٥٠

يتنقل الروائي في سياق ثلاث مسارات سردية تتداخل أو تتعاقب أو تتوازى.. مسار أول بطلته أورانيا وهي تحكي مأساة اغتصابها المريع من قبل الديكتاتور تروخيو، ومسار ثان بطله تروخيو نفسه وهو يخوض روتين أيامه، ولا سيما الأخيرة منها قبل اغتياله، ومسار ثالث أبطاله جماعة من العسكر والمثقفين وحتى من رجال القصر الجمهوري ومن المقربين من تروخيو وهم يكمنون لتروخيو ويمطرونه بوابل من الرصاص قبل أن تفتك بهم رجال الاستخبارات وابن تروخيو الجنرال رامفيس، المتهتك، وزير النساء، والمتوحش.

رواية هي أغنى وأوسع وأعمق من هذا العرض المبتسر.. رواية مكتوبة برؤية خبير بارع في حقلي الأدب السردي والسياسة، الروائي البيروي (ماريو بارغاس يوسا). وبترجمة أستاذ متمرس في مجاله (صالح علماني)، نقل للغتنا العربية أجمل وأروع الروايات العالمية، ومنها هذه الرواية (حفلة التيس).

أناشيد الرياح الأربع

محمد سهيل أحمد

١- ريح الشمال

رخية كلقاء عاشقين/ منعشة باردة/ مدن مفتوحة/ أحلام تمضي أبداً نحو الأعالي/ ثلج/ آريون عند بوابات المدن المتفسخة/ آثار أقدام لمخلوقات منقرضة/ حداد وكرمليتات بأجراس وبلا أجراس/ عباد شمس في سهوب الأناضول/ جثث/ مستنقعات/ نثار أوراق شجر/ بذور صنوبر/ وجوه ناظم وإيسين/ دماء بوشكين المهدورة من أجل امرأة صارت شلالاً في نفق الزمن السري/ ماذا في حقائبك يا ريح الشمال؟/ زخّات من مطر فوق (الدون)/ عطور فاتنات (بطرسبرغ)/ همهمات دستويفسكي/ صرير زحافات (ليرمنتوف)/ منديل (جنكيز ايتماتوف) المنفلت من شجيرة العاشقة/ إيماءات (البالرينات) في (بحيرة طائر التم)/ أم إيقاعات تشايكوفسكي في (السمفونية السوداء) ؟ / تأتين بالصقيع من أصقاع (سيبيريا) ودبكات الأكراد ورائحة كباب أربيل/ دوائرك اللوبية تتسكع في وديان (آرارات)/ تأتين بأصداء (يالطا) وهدير المدافع النازية، من عيار ٥٠٠ ملم على (أوديسا) وزعيق القوزاق الى تخوم (يرفان)/ وهناك في سواحل (فلوريا) تتهادين بسرعة/ تتخللين رئة (استانبول) الأوروبية/ تداعبين خصلات شعر (ساربيت أصلان) ابنة حمال القطارات/ تيممين صوب برج المدينة السياحي الذي كان يوماً منارة لمسجد قديم/ تمضين على غير هدى في (استقلال جادة سي)/ تقفلين عائدة إلى رجل وحيد/ رجل صغير يدور حول تمثال (أتاتورك)/ تلجين معطفه الفضفاض/ تضاء نوافذ البنسيونات السرية/ تطفأ/ تسمع صفارات منبعثة من سيارات الشرطة/ يتلاشى قوادو العلب الليلية/ (استانبول) تؤرقها حياة الليل وتوقظها ريح الشمال الصباحية.

حين تقبلين ياريح الشمال/ أعقد لنفسي فرحاً/ وحين الرحيل ابحث عنك في مرافئ روحي!

٢- ريح الجنوب

خطوط العرض والطول قد اختلطت عندي/ الجغرافيا في رأسي كأس مقلوبة رأساً على عقب/ تهشمت البوصلات/ لا أعرف من الإسطرلاب غير اسمه/ ما انتظرتك قط ياريح الجنوب/ ثقيلة أنت على الصدر/ تصطحبين التاريخ وَشركة الهند الشرقية والبرتغاليين والمراكب الانجليزية إلى الخليج/ تدفعين ببقع الزيت إلى أقصى الشمال/ وروائح العرق الزنجي الى ارض السواد/ تدفعين بمراكب التجار المحملة برقيق أبنوسيي البشرة/ ظلال إيقاعات/ بطون طاوية/ تلقين بهم حيث عتبات الدولة العباسية /لماذا ياريح الجنوب تهربين أحلام إفريقيا المجتثة في كل حين إلى متاحف (فينا) و(لندن) و (باريس)؟/ تشحنين (الفلاشا) الجوعى إلى فلسطين المكلبة بالموت العربي؟/ تدفعين بالأساطيل إلى حافات بحر العرب/ أين هداياك من (جارديناي) (جزر القمر) وسوسن (جزر القمر) وشموس (المالديف)؟!/ ياريح الجنوب... مثقلة انت كصدري! / ياريح الجنوب ... مثقلة انت كرأسي !

٣- ريح الغرب

معذرة يا (شيلي)/ أيها المنشد الخالد/ يا من أهديت أغنيتك الى (ريح الغرب) نعم/ أيتها الريح القادمة من الغرب/ يا صنو ريح الشمال/ يا مندوبة شركات التجميل/ يا حاملة غبار الحضارة الرأسمالية الينا/ ما في معطفك من هدايا؟ أوه/ انها ابتسامة (بوش) المصنوعة في (البيت الأبيض)/ حيث الأصبع على زر القنبلة الذرية/ تعالي أيتها الريح (الابيض-متوسطية)/ يا حبلى بروائح اللحم البشري وهو يشوى في خنادق (بيروت) و(صيدا) والمخيمات المقصوفة/ تتهاوى طيور النار في بغداد/ تختلط الوجوه الذائبة بشظائر (الهامبرغر) وبارود الالمنيوم المنضب / يا بارودا في الحلق/ ايتها المتسكعة في صالات (الديسكو) الغارقة بارتعاشات الألوان الضوئية/ حيث ينام القلب على سرير اللامعنى / ويموت العابر برصاص الأهل/ تتهاوى بعلبك المعطرة بأنداء فيروز وتنهض من رماد/ أيتها الرياح الغربية ماذا في حقائبك؟/ حفنة من زعتر (الخليل) أم ريا البرتقال اليافاوي؟/ كلا/ لست سوى تاجر شنطة أو عارضة أزياء/ ايتها الآتية بأخبار (كوندليزا) المكررة كشاي المقاهي والرحلات المكوكية/ الفانتومات والميراجات/ أيتها الريح الغربية/ يا من لوثتك شوارع (روما) المزدحمة بالمركبات/ ومصانع (فرانكفورت) و(جلادباخ) / يا من تدفعين بغجر أوربا المنبوذين إلى الوراء/ دوماً إلى الوراء/ أيتها القادمة من بلاد اللاقلب/ كوني نقية كرائحة فم طفل أو لا تكوني!

٤- ريح الشرق

قدم في الصحراء/ كثبان الروح تعرت/ نفخات كونفوشيوسية/ أنت ياريح الشرق الأصفر/ يا من كنت كآبة (ميلانخوليا) على صدر (طاغور) ورصاصاً في قلب (المهاتما) / أيتها المنحدرة من شواهق (الهملايا) ياغجرياً بقناع يعبر بوابات (البنجاب)/ يا مهووساً بالطب يرش (ذباب بوبال) البشري بالد.د.ت/ أيتها القادمة بالوجوه التي التهمت أعينها الأسماك/ أيتها الآتية بجثث (التاميل) من سواحل/ (سرنديب) وعلب البيرة السنغافورية الفارغة /وهتافات جماهير كرة الهَوَس المدور / وعبق تنباك الأرجيلات /أيها القاتل الخفي والمنعش المباغت / يا(روبوت) اليابان الذي يعتمر قبعة من (تايوان) ونعلا بلاستيكياً من مطاط (جاوا) ودوارا من بترولها/ أيتها الآتية بهولاكو وجنكيزخان الى عتبات الدولة العباسية / أيتها العائدة بدهشة (ماركو بولو) / ورائحة البارود الصيني/ يا من أسلمت السيف ليوكومشيما والتاج لهيروهيتو/ يا قلب الحب وحب القلب/ خذي بيد الأمطار إلى (بوذا) والى العشاق/دحرجي تفاحات الأمس الى وديان النسيان/ هل من (هيروشيما) في انتظارنا جديدة طازجة على السفود؟/ خبرينا ياريح الشرق/ هل سيكون القرن الحادي والعشرون وردة في حديقة الرب أم جثة في مشرحة الحب المفقود؟!

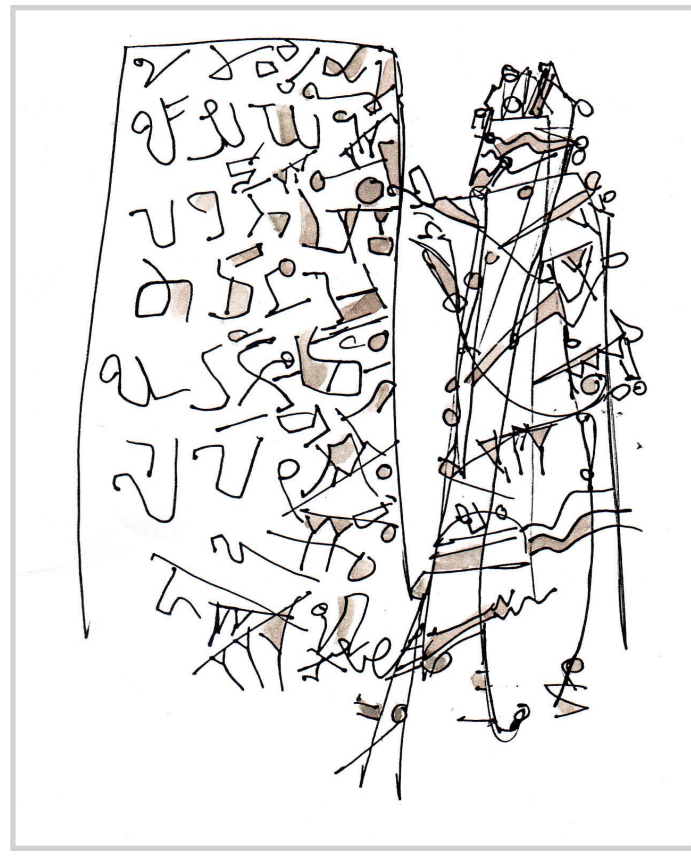

صدر حديثاً

الانتظار في ماريون .. مجموعة شعرية جديدة للعراقي عبد الخالق كيطان

المدى الثقافي

عن دار الفارابي في بيروت صدرت مؤخراً المجموعة الشعرية الجديدة للعراقي عبد الخالق كيطان والمعنونة: الانتظار في ماريون.. وضمت مجموعة من قصائد الشاعر المكتوبة بين العامين ٢٠٠٠ و ٢٠٠٧ والمندرجة ضمن تجربة الشاعر في كتابة قصيدة النثر .. وقعت المجموعة التي صمم غلافها فارس غصوب في حوالي ١٥٠ صفحة من القطع المتوسط .

و" الانتظار في ماريون" هي المجموعة الثالثة للشاعر العراقي المقيم في أستراليا بعد مجموعة: نازحون، ١٩٩٨ التي صدرت عن دار الجندي في دمشق (وهي المجموعة التي حازت جائزة ال شاعر العراقي الراحل عبد الوهاب البياتي في دورتها الأولى).. ومجموعة " صعاليك بغداد" التي صدرت عام ,٢٠٠٠ يفتتح عبدالخالق كيطان مجموعته الجديدة بنص العنوان، والتي جاء فيها:

هنا في البقعة النائية
أتعلم الجلادة كلَّ ليلة
تذوب الليالي واحدة تلو الأخرى
فيما قدماي تدمنان الارتجاف
عيني على السكارى
والأجساد التي ترمي بالشرر
لا أريد ما أتعلمه
لأنه ببساطة لا يناسبني
ساعات ثقال لا أملك فيها
غير تأملات ليست ذات جدوى
ولأنها كذلك
فإنني أكثرُ من الحنين
كان أبي قد تعلم رطانة ما
أتعلمه الآن
حفظ الدرس جيداً
فأخرجوه شبه ميت من تحت السيارة
هكذا أمضى ثلاثين عاماً بعدها
يصمت طويلاً ولا يدخن
الانتظار في ماريون اليوم
لا يختلف عنه في شارع دجلة قبل خمسين عاماً
الوجوه هنا تختلف، وغرابة اللسان أيضاً ..
الانتظار ذاته
أجلس خلف المقود وأبتكر شكلاً للصبر
ومثل رجل دين طاعن أكْثِرُ من الأدعية التي تجلب الرزق
في المقعد المجاور يجلس أبي
وفي المقاعد التي خلفي يجلس أصدقاء تناثروا
ليس من السهولة على عاقل أن يعيش هكذا
ربما من أجل هذا ابتكروا الشعر والموسيقى
أنظر في المرآة الوسطية فأرى الشعر ينأى
وفي المرآة الجانبية
أرى حشد كمنجات يحيط به..

"خنادق مليئة بالرؤوس .."

الكشف عن رسائل ج. ب. بريتسلي من الحرب العالمية الأولى

مارتن وينرايت

ترجمة: مصطفى ناصر

سيكون بامكان جمهور القراء في الشهر القادم ان يقرأوا رسائل نادرة لم تنشر من قبل ارسلت من خنادق الحرب العالمية الاولى كتبها ج. ب. بريتسلي ، وهو واحد من الادباء الكبار الذين شهدوا ذلك النزاع الجنوني الرهيب.

يتكون ذلك الارشيف من ٤٧ رسالة وبطاقة بريد موجهة الى ابيه واخته وزوجة ابيه وقد سلمت الى جامعة برادفورد من قبل ابن الكاتب واسمه توم وهو ايضا مؤلف وصانع افلام وسوف تصدر مراسلات بريتسلي الكاملة في كتاب العام المقبل.

يبدو ان بريتسلي كان وقتذاك يكتب على عجل بقلم الرصاص وعلى ضوء شمعة او في ملاجئ الجنود التي يغمرها الوحل. كانت الرسائل تعطي فقط صورا حيوية عن الاحوال المرعبة التي يعاني منها ذلك الاديب الشاب الذي نجى بحياته من المحرقة لكنه لم يتمكن ابدا ان يضمنها في رواياته ومسرحياته. كان يحس بالامتعاض والاحباط والفشل من ضياع ارواح المئات والالاف من البشر خاصة الذين هم في ريعان الشباب "انهم افضل البشر بيننا" وابقى الكاتب امر الرسائل سرا من ذلك الوقت. البعض من النقاد قال ان انتاج بريتسلي كان سيصبح استثنائيا لو استفاد من رسائله تلك في رواياته. لقد قال لاصدقاءه بعد المذبحة التي جرح فيها ثلاث مرات بعد ان تطوع في ١٩١٤ انه يريد فقط ان يعيش ثانية وينسى السنوات الاربع الرهيبة التي امضاها وهو يحاول ان يحمي نفسه والاخرين من ان يتعرضوا للقتل بلا طائل.

تتضمن مادة الرسائل وصفا دقيقا بكل معنى الكلمة لكابوس معركة شهيرة دارت رحاها في فايمي ريدج عام ١٩١٦ حيث اصيب بريتسلي بجرح خطير بقذيفة هاون. "لا بد ان تكونوا قد سمعتم بالمتاهة الشهيرة. حسنا ، هذه هي" هكذا قال لعائلته في اذار ١٩١٦ "هناك تلال باكملها جرفت في الهواء ، خنادق قديمة مليئة بالرؤوس ، سيقان واذرع ، ملابس ملطخة بالدماء وادوات وتجهيزات بالية". لقد تقبل بريتسلي بتلكؤ مهمة ضابط في ١٩١٧ ، ثم ما لبث ان عاد الى فرنسا ، حيث تعرض للتسمم بالغازات واصيب بحروق شديدة. كتب يقول: "احس بالقرف مع الضباط من رفاقي من الطريقة التي يتعرض فيها رجالنا للذل والتكبيل من قوانين سخيفة ليس لها معنى ... في الواقع انني في غاية الضجر ... افكر بالعودة مثلما كنت الى صفوف الجنود".

لقد تم تنظيم الرسائل في الارشيف من قبل مختصين في مكتبة جامعة برادفورد ضمن مجموعاتها الخاصة. تقول الكاتبة اليسون كلنغفورد التي اصدرت كتابا عن تجربة ج ب بريتسلي في الحرب بعنوان (بريتسلي في الحرب العظمى) : "يمكن رؤية تأثير الحرب في شخصية الكاتب من خلال حملته التي قام بها دفاعا عن السلام في الثلاثينات وفي كتب مثل (رحلة انكليزية) عن اعادة تشكيل فوجه في ١٩٣٣ ، حيث قال بان بعض الجنود المسرحين لم يعودوا الى ثكناتهم لانهم لم يستطيعوا دفع ثمن ملابس لائقة. لكنه من خلال قدرته الابداعية الرائعة كان بوسعه ان يمزج بين المظاهر التي تدعو للسخرية والمرح مع صورة الرعب القبيحة".

كتب بريتسلي في ١٩٦٢ في مذكراته التي صدرت بعنوان (اطلاق سراح امور هامشية). "كان لا بد للجيش ان ينقلب على القائد هايغ ورفاقه وان يرسلهم الى منازلهم". وبقي طول حياته ، حينما يفكر بالحقول الخضراء التي كان يلعب فيها ايام دراسته وطفولته ، لا يرى شيئا واضحا سوى "حشد من الاشباح".